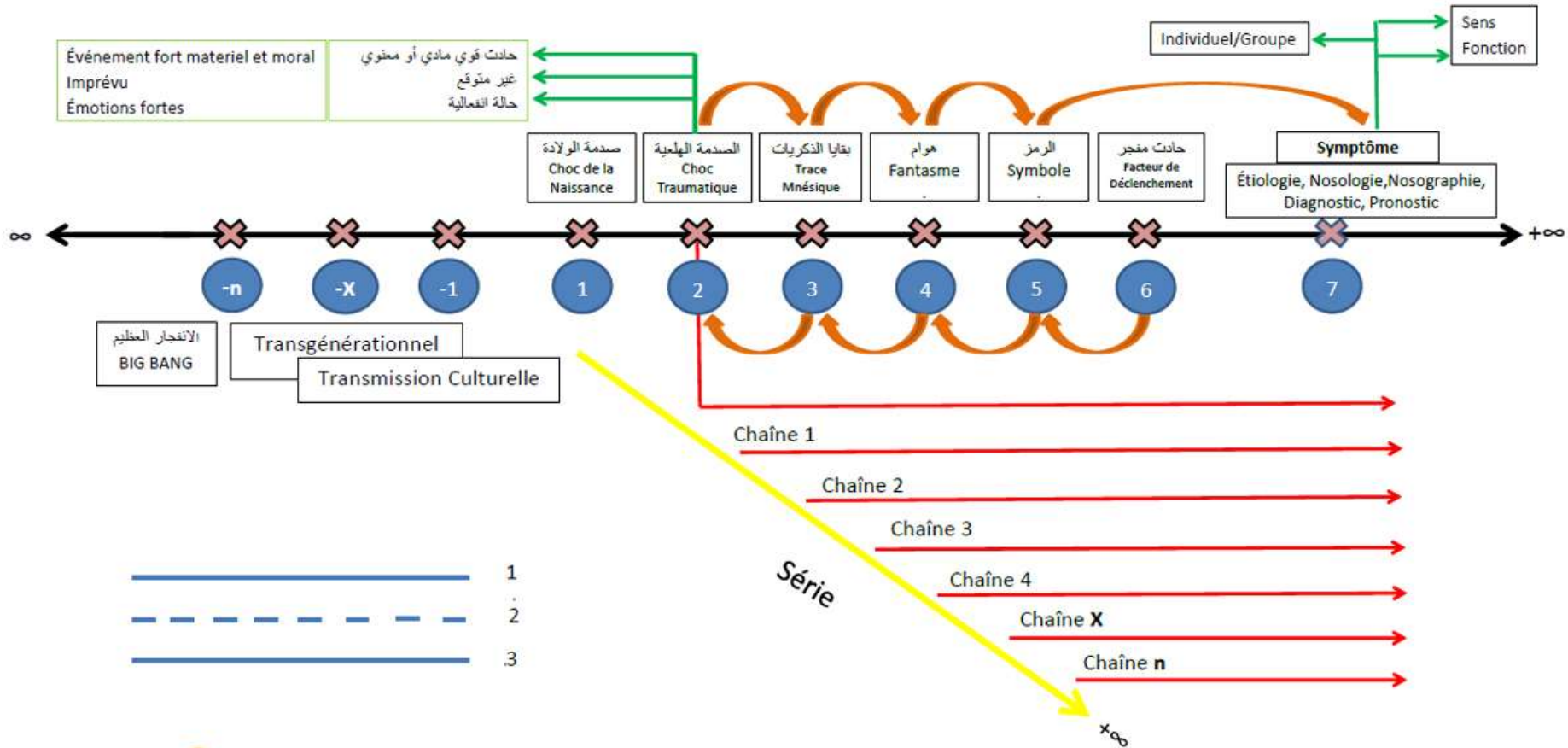


نحو اعادة التأهيل من الصدمة؛ أهداف وأساليب التدخل العيادي والدعم النفسي في حالات الطوارئ والكوارث
 Vers la Réhabilitation et L'Intervention Psychothérapeutique; La Stratégie et les Techniques en Cas d'Urgence

نموذج عن إنفجار عودة المكبوت: العارض المرضي للصدمة الهلعية
 Modèle du Retour du Refoulé: Le Symptôme de l'Explosion des Traumas Cumulés: Le Retour du Refoulé



عن عصاب الحرب والكوارث الطبيعية والعنفية : من مآهات الصدمات الى ضوابط التدخل النفساني

1. "عصاب الحرب" مفهوم هام في علم النفس المرضي الاساسي وهو يحيلنا الى الحوار بين أينشتين وفرويد بطلب من " عصابة الأمم" تحت عنوان: ليكن التقدم العلمي لخدمة الحضارة الانسانية بعيداً عن تدمير البشرية (العودة الى الرسائل المتبادلة بينهما تحت عنوان "لماذا الحرب").
2. عصاب الحرب؛ذهان الحرب؛ صدمات الحرب والدمار المادي والمعنوي..... مفاهيم تقوم كلها على لائحة طويلة من الصدمات المادية والمعنوية التي تدمر الحجر والبشر وتقتل الإنسانية في قلب الانسان لتجعل منه وحشاً داسراً متقلتاً من كامل القيم.
3. الصدمات او "التروما" هي الآثار المادية والمعنوية على ساحة مسرح الانفجار وهي الشاهد على قتل مؤشرات الحياة ونبضها ورموزها في الكائنات الحية من مخلوقات الله .
الصفات الاساسية للصدمة:
 - 3.1 حادث قوي؛ ماديّ معنوي، له وقع الحدث الجهمني النووي التدميري الشديد العمق والقوة.
 - 3.2 غير متوقع ويحصل خارج نطاق الاستعداد المادي والبشري الدفاعي او الهجومي وهو مباغت ويقع فوق القدرة على التحمل وفي غير سياق التوقعات المحسوبة.
 - 3.3 يفجر ويطلق حالة إنفعالية شديدة واستثنائية تمزق الجهاز المناعي والنفسي وتخرق كل القيم والنظم المادية والانسانية في زمن السلم وتفتح غرائز العدوانية والقتل والتدمير الذاتي والبيئي وهي مؤشر على انتصار غريزة الموت (thanatos) على غريزة الحياة والحب (éros).

4. الصدى الأول للصدمة هو تكسير البناءات النظامية المادية والمعنوية لمعالم الحياة وذلك عبر تجسيدات "الآلية التشكيلية" للعوارض المتعددة "كتسونامي" تكاد تأتي على كل شيء يواجهها! وهو ما يتفرع عما يسميه فرويد "بالآلية التشكيلية للعوارض المرضي". (انظر الرسمة الملحقة schéma).

5. تتحدد هذه الآلية من بداية الكون (سلسلة الانفجارات الكبرى) (من البغ بونغ الى تجسيدات العارض المرضي عند الانسان "الصابر" المريض المألوم الموجه المنكسر في مناخ الدمار المادي والمعنوي).

6. الآلية التشكيلية تغطي مساحات الزمان والمكان والافراد والنظم وتتمحور حول المظاهر اللامتناهية الكبر والبعد واللامتناهية المجهرية الصغر والقرب. وتتراوح ما بين الماضي والحاضر والمستقبل لتشكل بذلك الازمات الوجودية التي تصيب هيكلية البنى الاجتماعية والنفسية وتبني مسرح الدمار المتنقل.

7. تنتظم الآلية التشكيلية على شكل سلسلة لا تنتهي مؤلفة من حلقات لا تنتهي وتتواتر بحركة غير قابلة للضبط وتعتمد نظرية الصدفة والفوضى في الظاهر الا انها تصدر عن قواعد علمية لا يمكن فهمها الا بتقاطع الدينامية العمودية مع الدينامية الافقية في اطار دوائر لا تنتهي ولكن لها بدايات ونهايات علينا رصد مؤشراتنا. تبدأ السلسلة من اللامتناهي الاولي والبعيد الى اللامتناهي الثاني التابع والسائر من الماضي الى الحاضر الى المستقبل متموضعا في لحظات الحاضر التي لا تقاس الا بجزيئات الثانية! (حسب احمد زويل). لحظة الصدمة لا تقاس الا بالثواني، اما نتائجها المدمرة فانها تقاس بالدهر او بمساحة الحياة الفردية وبحياة الجماعة والشعوب. وتتحول اللحظة الموجهة الى اساس "الرواية الاسرية" وروايات الاساطير والمعتقدات الجماعية والفردية.

8. تتدرج عناصر الآلية التشكيلية التي هي اساس وقاعدة التدخل في العمل النفساني على شكل حلقات السلسلة بالتدرج التالي:
- 8.1. صدمة الولادة (ولادة الكون وولادة الفرد بما تعنيه من انسلاخ عن الاصل ودخول في دينامية التكيف في بيئة جديدة).
- 8.2. الصدمة الهلعية (التي تم تحديد عناصرها اعلاه بثلاث نقاط). وكلما كان زمن حصول الصدمة مبكراً في عمر الفرد او الجماعة كلما كانت العوارض النهائية للصدمة اكثر خطأً وتدميراً.
- 8.3. بقايا الذكريات: أي أن الصدمة هي صدى تكامل الاحداث كلها ولكن الخوف والخطر فيها يُنسى ويكبت وما يبقى منها ليس سوى بقايا ذكريات.
- 8.4. الهوامات وهي ما يرسخ في ذاكرة المصاب بالصدمة على شكل خيالٍ حصل ومضى وضاع وتركز في النسيان. ويمكن استعادته في اطار العمل النفساني الذي نحن بصدد القيام بعملية تنظيم ما تخرب وهذا هو هدف كل دعم وتدخل نفساني.
- 8.5. الرموز: وهي تحول الهوامات من خيالٍ حدثٍ مضى الى عملية تشريطية تختصر ما حصل وتدخل في بناء السلوك الدفاعي على ارض الجريمة وتتحول الى مفاتيح على شكل شيفرة اذا تمكنا من فهمها وفك معانيها استطعنا اختراق وجع المريض بإعادة وعيه بما حصل مما يفتح الطريق الى الدعم النفسي المناسب.
- 8.6. الحادث المفجر في فترة ما بعد الصدمة لما حصل في فترة ما قبل الصدمة:
- ان كل حديث عن اضطراب ما بعد الصدمة يفترض فهم السياق العام للسلسلة ولحلقاتها وإعادة ترتيبها من الاصغر الى الاكبر. الذي يحصل هو ما بعد الصدمة الاخيرة مربوطاً بما قبلها : اذن من ما قبل ما قبل الى ما بعد ما بعد وهي كلها ما "بعد حين". وهنا يكمن العمل النفساني الحاسم .
- الحادث المفجر لا يحمل بذاته ولذاته قوة التفجير وانما هو آخر نقطة ومحطة تراكمت في خزان الكبت المديد وهي كالقشة التي فاض بعدها ما قبلها وعليه تبدأ الآلية التشكيلية للمرض وعوارضه بالظهور.

8.7. يجسد الحادث المفجر بداية رحلة النكوص من حاضر ما قبل ظهور النتائج المرضية السلوكية للصدمة الى النقطة التي تم التثبيت فيها للصدمة الهلعية الاولى والاقدم وما يليها من تراكمات في السلسلة وحلقاتها لتعود مرة ثانية من مرحلة تطور بناء التراكمات الى مرحلة بناء وتطور العارض المرضي برحلة عكسية من الصدمة الى البقايا الى الهوام الى الرموز الى الحادث المفجر الى صدى وبقايا التدمير على مسرح المجتمعات والافراد.

9. وهنا يظهر العارض المرضي على شكله النهائي الذي تتداخل وتتكامل فيه تقنيات التشخيص ما بين DSM5 وتشخيص التحليل النفسي المرضي الاساسي على انواعه

10. نصل الى البناء المتكامل وحيث تتكامل الحلقات وتتجمع مؤشرات فهم ظاهرة الوجد التي تصيب الافراد والجماعات وهو ما يظهر على مسرح الانفجار الكارثي.

11. الخط الانقاذي الاول: هو بلا منازع التدخل الاسعافي الاساسي بما يعني حصر الخسائر وانقاذ الجرحى والمعذبين الباقين على قيد الحياة وتامين مستلزمات اعادة نبض الحياة على مسرح التدمير والبحث عن الاثار المجهولة وغير الظاهرة . وهنا لا عمل للنفساني في هذه اللحظة المبكرة لان الاثر النفساني يظهر بعمقه بعد حين. العمل الان يتم في اطار ازالة الدمار واعادة نبض الحياة داخل المصاب بالانهيار.

12. الخط الثاني للتعامل مع الصدمة هو خط ما "بعد حين" وهو دور النفساني والاجتماعي على شكل التصدي لاعادة البناء النفسي والاجتماعي للفرد ولما بين الافراد وفي المجتمعات عامة . وهنا يكون العمل النفساني في اطار هدف "القيامة والانبعث" من دائرة الدمار الى دائرة تحسس بقايا نبض الحياة الى دائرة اعادة التفكير بكيفية الاستمرار بالحياة في فترة ما بعد الانبعث من ورشة الدمار القتالة.

13. ما هي ضوابط عمل النفساني في هذا السياق؟

13.1. لا يمكن للنفساني " المصدوم " مما حصل ان يتدخل لان آثار الصدمة ما زالت ظاهرة على سلوكه ولغة جسده مما يحوله الى حامل للخوف اكثر من مستوعب لمندرجاته! على النفساني ان يحمل للمصدوم معالم الامن والامان والرعاية الصامتة قبل الكلام المطمئن. (**وينيكوت** ووجه الام الذي يحمل القلق أو الامان للطفل المألوم والخائف.)

13.2. على النفساني ان يَنشِطُ أذنه على الاستماع الى الوجد بدون ان تظهر عليه معالم وجعه الشخصي بل ان يعمل على الحياد المرحب والبناء والمسؤول وان يكون محايداً ومرحّباً على قاعدة الاستماع الجيد... والنشط للمصدوم.

13.3. على أذن النفساني ان تحمل القدرة على الاستماع الى مؤشرات الوجد ورموزه وتفتح آفاق تدخله في تعابير وجهه وفي مفردات كلامه وذلك عبر اعتماده على ما اشرنا إليه في " نخلة تبيين " في الاستماع الى الطلب العيادي مقدمة للتدخل الفاعل لامتصاص الهلع والخوف ولمشاعر انسداد الافق عند الصابر وعلى التعامل مع لاوعيه عندما يتحدث الصابر عن " روايته الاسرية " المدمرة مما يساعد على اعادة بناء مسرح الحياة من جديد. وهذا ما يفترض ان يستكشف من فهم تضاريس كل حالة لان الحالة النفسية هي الشاهد على نفسها ولذاتها.

13.4. نجد في "برنامج تبيين" للتدريب على العلاج النفسي وبخاصة في الازمات والكوارث لائحة طويلة من تقنيات التدخل التي يمكن اعتمادها لكي نبتعد عن الكلام التنظيري الكبير الذي لا يفيد المنكوب. يحتاج المصدوم الى من يمد له يد العون العملائي الصادق وغير المكابر.

13.5. على النفساني ان يفهم لغة المصدوم وروايته الاسرية عن غياب عزيز له مثلاً وان يفهم عذاب الناجي من الكارثة وان يضع كل هذه المعطيات على السلسلة وحلقاتها: العمر والحدث الهلعي والمكان والاشخاص والسلوك والانفعالات ليعيد بها ترتيب الحدث الصادم مقدمة لبدء آلية الإنقاذ والدعم النفسي.

14. كل النقاط المذكورة تتربط مع ما سبقها وما يتبعها لتشكّل استراتيجية التدخل وآلياته وتقنيات التدخل المناسبة.

15. تتموضع **تبيين** باشرافي بالتزام عميق مني بما تراه الجهات الوطنية التي تحمل مسؤولية الانقاذ وعلى رأسها مؤسسة الجيش الحامي للوطن. ونحن في موقع الاشراف على هذا العمل من عدة جهات تبدأ بالاستماع وتصل الى حدود اقتراح ورعاية اسس التغيير الممكن!

16. التوقف عند السلسلة وحلقاتها التي تتداعى تحت الصدمات المتتالية والمطلوب بشكل اساسي هو كسر آلية الانهيار عند الصابر الناجي وذلك ببناء آلية للتدخل عندما نحسن قدراتنا بالوسائل المناسبة عبر الية فعالة ومفاهيم جادة في التعرف على عناصر المشكله وصولا الى الفهم الكامل للحالة المحددة مما يساعد في تحديد التدخل العيادي.

17. نجد تحديداً دقيقاً لتفاصيل آليات التدخل العيادي النفساني على مسرح الدمار والانفجار والطوارئ وذلك في مجموعة الكتب التي نشرتها وسوف يصار الى تحديد واضح للنقاط والفقرات المناسب اعتمادها في العمل مع الفئات العمرية والحالات الصعبة.

18. العمل الهادف الى التعامل مع كافة الحالات الدقيقة يجب ان يستهدف كافة مستويات السوداويه التي تخطف الفرح وتدفع الى الحزن العميق. الهدف هو اطلاق دينامية الحياه عند المصدوم وعلى استنفار ارادة التغيير عنده. لقاءنا في العمل الميداني لنرى معاً كيف يمكننا ان نحوي الدمعة والوجع لنستعيد شيئاً من البسمة والفرح عند المألوم المنكسر الذي اصابته شظايا الحروب والكوارث وسلبته انسانيته ونبض الحياه في داخله!

خلاصة:

لا يمكن الانتقال المفاجيء من حالة السلم والسلام الى حالة الخسارة للدار والجار والاطار الانساني بكامله من دون هزة وجدانية وجودية صاعقة ومربكة!
لا بد للتدخل النفساني الداعم ان يعتمد طريقة فاعلة للانتقال من التوازن الى اللاتوازن فالى عملية إعادة التموضع في دينامية التوازن الجديد من دون معرفة الاطار العام والشخصي للانسان المنكوب(ظاهرة الاوموستازيا)
يهدف هذا النص الى تبيين مكامن ومراحل واستراتيجية واساليب هذه العملية الهامة في زمن السلم الضائع والاحلام المقتولة في مجتمع مقتول ويقتل ابناؤه!
الانتقال بالناجين ومعهم ممكن اذا استطاع النفساني ان يفتح اذنه للاستماع الى الم الناجين واستطاع ان يفهم دينامية قلق الناجي من الكوارث وكان مقتدرأ على بناء برنامج تدخل متوافق مع الممكن والمتاح على قاعدة فهم الطلب العيادي والقدرة على تحويله الى برنامج قابل للحياة في زمن الوجود المتمادي في العالم المعاصر الذي يقتل الانسانية في جوف حامل الحياة بدون إعادة نبض الحياة الى هذا الجوف المنخور و العليل.
نصنا هو حامل لمشروع حياة عند من جفت في عروقه البسمة وحبّة الماء ولقمة العيش وزاوية البيت الآمن وهذا ممكن وملزم وواجب ولزوم ما يلزم.

عباس مكي

رئيس مركز تبيين انترناشيونال

نحو اعادة التأهيل من الصدمة؛ أهداف وأساليب التدخل العيادي والدعم النفسي في حالات الطوارئ والكوارث
 Vers la Réhabilitation et L'Intervention Psychothérapeutique; La Stratégie et les Techniques en Cas d'Urgence

نموذج عن إنفجار عودة المكبوت: العارض المرضي للصدمة الهلعية
 Modèle du Retour du Refoulé: Le Symptôme de l'Explosion des Traumas Cumulés: Le Retour du Refoulé

